الانخراط في العالم
مشروع لأمّة غير قومية

الفضل شلق

I

تقف أمتنا اليوم موقف الحيرة والتشكك أمام ما يُسمّى بالنظام العالمي الجديد. وموقف الحيرة هذا تكرر كثيراً طوال القرن العشرين. فأمتنا ما شاركت في النظام العالمي القديم ـ بل كانت موضوعاً له ـ وما شاركت في نظام الاستقطاب الذي أَعقب الحرب العالمية الثانية. وتوشك اليوم أن تبقى أسيرة الحيرة والتشكك والتوجُّس والانكماش إلى أن تستتبَّ أوالياتُ نظام ما بعد حقبة الاستقطاب، ونبقى نحن في الخارج، في «أحضان» التبعية الدافئة فيكتمل **خروجنا من التاريخ** حسب تعبير بعض الدارسين. لقد اعتقدنا دوماً أنّ هناك مؤامرةً علينا هدفُها ضرب كرامتنا ومقوّمات وجودنا وتقزيمنا، وبالتالي إخضاعنا واستتباعنا. وكنا نجد دائماً الشواهد على ذلك في فلسطين والباكستان والبوسنة والآن الشيشان وما أدراكم ما بعد الشيشان!

هذا الإحساس بالغربة في عالم اليوم دفع ويدفع نخبةً من دارسينا إلى الحنين للماضي الماجد والقويّ، ومن ضمنه الماضي القريب: ماضي الدولة والخلافة العثمانية العظيمة. بيد أن هذا «الحنين» للعثمانيين يتناقض والتقوقع الذي يفرضُهُ علينا القوميون والإسلاميون في الوطن العربي على حدٍّ سواء. فالعثمانيون ـ أياً يكن الرأي فيهم اليوم ـ كانوا آخِر المشاريع العالمية الإسلامية، والحنينُ إليهم حنينٌ لا للقوة والمجد وحسب؛ بل هو قبل ذلك وبعده: حنينٌ للنزوع الكوني والعالَمي الذي مَيَّزَ أمتنا منذ بزوغها في القرن

السابع الميلادي. فهذا هو معنى الفكرة الاستراتيجية العربية في مطالع هذا القرن: فكرة الوحدة. وهذا هو معنى الالتفاف حول جمال عبد الناصر بعد مؤتمر باندونغ. فالفكرة العربية عند روّادها ـ فيما قبل ساطع الحصري ـ فكرةٌ عالميةٌ ومؤتمر باندونغ، وعدم الانحياز ـ معناهما عودة أمتنا للمشاركة في حضارة العالم ومصائره.

منذ البداية كان لهذه الأمة مشروعها الكوني، وهو الإسلام، وكان هو مسوِّغ نشأتها. وعلى الأرجح، ما كان ممكناً ولادة هذه الأمة وتطورها لولا ذلك المشروع الكوني الذي دفعها على الدوام إلى تجاوز نفسها. لم يكن هذا المشروع برنامج عملٍ بقدر ما كان دعوةً تعتمد الدمج الاجتماعي (لا الفتح) وسيلةً لها، وتعطي الأولويّة للإنسان (المجتمع) على الدولة (المؤسسات).

لم يكن الفتح هو الغاية ولا حيازة أشياء الدنيا (وغنائم الفتح)، بل كانت الغاية حيازة الدنيا برمتها، لا كما اتفق، بل لتحقيق حياة تستند إلى مصدرٍ إلهيٍّ يعطيها معنىً ومغزىً يصعب نَيْلَهُما بالأشياء المادية وحدها؛ ففي المشروع المحمدي للعالم؛ لم تُهْمَل الدنيا ولا كان للمقدَّس كيانٌ مستقلٌّ على حسابها.

هذا التوازن بين الدنيا والمقدس في وعي الفاتحين جعلهم يتخذون الفتح وسيلةً لا غاية، وبالتالي استطاعوا إقامة مجتمع جديد ذي ثقافةٍ موحَّدةٍ اندمجت فيه مجتمعات وثقافات متعددة. ولم يكن هذا الدمج ممكناً إلاّ لأنّ العملية ساهمت فيها مساهمة كبرى الشعوب المغلوبة. ولم تُفرض على تلك الشعوب ثقافة العرب التي حملوها معهم من شبه الجزيرة العربية، بل تكوّنت ثقافة جديدة وحضارة جديدة أسهم فيها الجميع، كأطراف لقضية واحدة دون أن يفرض الغالب نفسه ليشعر الآخرون بأنهم مغلوبون ودون أن يكون بينهما حاجزٌ ماديٌّ أو نفسي كما يكون الأمر عادة عند حصول غلبةٍ لشعبٍ على شعبٍ آخر.

ما كان ممكناً للعرب أن يكونوا أصحاب دعوة وأن يستأثروا في الوقت نفسه بالأمر لأنفسهم دون غيرهم، وبالتالي ما كان ممكناً استبعاد الشعوب الأخرى أو جعلها دونهم مرتبة. لقد حتَّم عليهم منطق الدعوة أن يندمجوا مع الآخرين

وأن يدمجوا الآخرين في مجتمع موحّد هو الأمة. كانت أولى خطوات الدمج هي جعل المسلمين الجدد موالي للقبائل، وحلفاء بل إخوة؛ علماً بأن رابطة القرابة لا ترتكز دائماً على النسب البيولوجي، والقبائل هي في معظمها أحلافٌ من أشتاتٍ تقاربت، وادّعت لاحقاً التحدّر النَسَبيَّ من أبٍ واحد.

في هذا المجتمع كان ممكناً للعبد أن يصبح سيداً أو أميراً أو سلطاناً. ليس أصل الفرد هو الذي يقرر مصيره أو يتحكّم فيه، بل يرتبط مصير كل فرد وارتقاؤه السلم الاجتماعي بالقدر الذي يندمج فيه بالمجتمع ويخدم أهدافه ويساهم في الدعوة التي ترفع الأمة لواءها. لم يحدث في أمة أخرى أن حكم العبيد (المماليك) فترة طويلة من الزمن. بل كان العبيد أنفسهم ينعتقون تلقائياً عندما ينتهي تدريبهم (العسكري والثقافي) ويصبحون صالحين لتأدية مهمّتهم التي اختصّهم المجتمع بها.

وبسبب الدعوة التي حملها العرب حققوا مجتمعاً كان نتيجةً لعملية دمجٍ واسعة النطاق ما شهد تاريخ البشرية مثيلاً لها. وما تزال هذه الدعوة حيةً متوهّجة تستوعب جماعات بشرية جديدة رغم فقدان الشعوب الإسلامية سيطرتها على مصيرها وخضوعها للغرب بشكلٍ أو بآخر.

منذ قرون حقق الغرب فتوحات واسعة واكتشافات جديدة، ورفع راية دعوة تمدينية وتحديثية. لكن الغرب الذي تشكل في الوقت نفسه من أمم قومية، والذي انقسم إلى دول تحتلّ كل منها إطاراً جغرافياً محدداً، ما استطاع أن يستوعب الشعوب الأخرى وأن يستميلها إليه. بل إنه، أي الغرب، في اللحظة التي تمت فيها هيمنته الكاملة على الكرة الأرضية، انفجر في حربين عالميتين انفجاراً سمح للشعوب المغلوبة أن تأخذ المبادرة لمحاولة التحرر من سيطرته والاستقلال عنه. وما العنصرية العرقية التي ظهرت في الغرب غير جانبٍ واحدٍ من جوانب الاستكبار الذي تحكم بالعقل الغربي في لحظة اكتمال انتصاره على الآخرين.

II

في خضم هذا العالم تحاول أمتنا العربية المرة تلو الأخرى التوحد والنهوض كي تحقق لنفسها القدرة على الاستمرار والبقاء؛ وهذا إن لم نقل؛ التحرر والمساهمة في تقرير مصيرها كجزءٍ من العالم. وقد مُنيت جميع محاولاتها بالفشل وأُصيبت بالعديد من الهزائم التي أدّت بالكثيرين إلى اليأس. لم يعد السؤال المطروح أمام الأمة هو «ما العمل»؟ بل هناك دائماً الجواب الجاهز لكل سؤال وهو أن المستقبل مجهول والأمل معدوم؛ ولا يُرجى الكثير من التفكير في الشأن العام، وعلى كل فردٍ أن يَحِلَّ مشكلته الذاتية والآنية بمفرده. والكثيرون يعتقدون أنّ تلك هي الواقعية.

لكنّ الأرجح هو أنّ الأمل بالنهوض لن يكون ممكناً دون الخروج من هذه الواقعية القاتلة إلى سبر الحقائق التاريخية التي يمكن أن تكون قاعدةً لاستشراف المستقبل بما يتفق مع إمكانيات الأمة وآمالها. ولن يكون التقدّم ممكناً دون التفتيش في حنايا الهوية التاريخية ما يمكن أن يعطينا دفعاً إلى الأمام وعمّا يمكن أن يجعلنا نأخذ بزمام المبادرة لنتجاوز وضعية الهزيمة ونحقق لأنفسنا وللآخرين ما يُغَيِّرُ صورة هذا العالم.

منذ أن بدأت الأقطار العربية تحقق استقلالها، بل قبل ذلك، طرحت النخب العربية التي كانت تقود الأُمّة برنامجاً يتمحْوَرُ حول القومية بمعناها الغربي. فالقوميات الغربية تياراتٌ أيديولوجيةٌ انتشرت في إطار أمم ذات حدود جغرافية ثابتة. وعندما كانت هذه الحدود الجغرافية تتغير بفعل التحوّلات في موازين القوى؛ كان الجزء من الأمة الذي ينضم إلى أُمّةٍ أخرى يشكل إضافةً كمية دون حدوث اندماج فوري أو تدريجي.

لا يتفق هذا المفهوم القومي للأمة العربية مع تراثها التاريخي إلاّ جزئياً. فالأمة العربية تكوَّنت حصيلة عملية تاريخية لعبت فيها الدعوة واللغة الدور الأكبر، ولم تكن الجغرافيا (مفهوم دار الإسلام ودار الحرب) غير أداة تقنية لتحديد العلاقات أي الإيديولوجيا الدولية، ولتمييز حقوق وواجبات أهل «دار الحرب» الذين يقيمون مؤقتاً في دار الإسلام.

لقد كانت الأمة، خلال مختلف مراحل تاريخها، مجتمعاً مفتوحاً يستوعب غير المسلمين (ممن كانوا يعتبرون أهل ذمة أو مستأمنين) كما يستوعب الشعوب الوافدة (نتيجة الغزو أو غيره)، وكان هذا المجتمع على استعدادٍ دائم للتوسع خارج حدوده الجغرافية. وغالباً ما كان هذا التوسع يتم بتأثير الدعوة لا بالغزو والسلاح. ومن ينظر نظرةً إجماليةً إلى العالم الإسلامي اليوم يجد أن جزءًا كبيراً منه تحوّل إلى الإسلام في فترات الضعف والتراجع لا في مرحلة القوة والغزو.

منذ البداية كانت هناك علاقةً جدليةً بين العروبة والإسلام. وما استطاع دعاة الفصل بينهما تحقيق مبتغاهم؛ كما أن المحاولات التي بُذلت من أجل إلغاء واحدهما لصالح الآخر في ذهن العرب والمسلمين لم تكن مجدية. في الوقت ذاته لا يمكن اعتبار العروبة والإسلام شيئاً واحداً، وأسباب ذلك واضحة. لكن مفهوم الأمة عند العرب يحتمل المعنيين، ويعود الالتباس إلى مكانة الإسلام لدى العرب وإلى أهمية العرب في نشر الإسلام وتطوره. وعلى الرغم من عدم إمكانية التفكير في أن يوجد أي من العروبة والإسلام دون الآخر، إلا أنه لا يصعب على العربي أن ينتقل من مرحلة يعتبر فيها العروبة محور تفكيره إلى مرحلة أخرى يعتبر فيها الإسلام محور وجوده، وتكون العروبة آنذاك شيئاً ثانوياً بالنسبة إليه.

وعندما أُصيبت الأمة بهزائم ونكسات متتالية على يد الكيانات العربية القطرية؛ في وقتٍ كانت فيه الحركات القومية تسيطر على وعي جمهور الأمة، اعتبرت هذه الحركات القومية بين أسباب التراجع وتم التحوّل عن أفكارها إلى أفكارٍ وبرامج أخرى ترتكز إلى الإسلام ومفاهيمه. ولم يكن ذلك تجديداً بمقدار ما كان عودةً إلى الجذور.

حاولت الحركات القومية توحيد الأمة وفشلت، فأتت حركات الإسلام السياسي لتعطي «شعار تطبيق الشريعة» الأولوية على كل ما عداه مُغفلةً شعار توحيد الأمة سواء اعتبرتها إسلاميةً أم عربية. وغالباً ما يكون شعار تطبيق الشريعة، بالطريقة التي يتم فيها طرحه، مبعثاً للتناحر والاقتتال الداخليين، حتى ليكاد المرء يحسب أنّ شعار «تطبيق الشريعة» هو شعار حرب أهلية،

معلنة أو كامنة، داخل كل قُطْرٍ عربي.

وإذا كانت الحركات القومية العربية قد طرحت مفاهيم غريبة عن الأمة، دون أن تعترف بالكيانات القطرية التي اعتبرتها صيغة الغرب الامبريالي، فإن حركات الإسلام السياسي تعترف بهذه الكيانات ولا ترفضها، بل إنها تطلب من حكوماتها تطبيق الشريعة. لقد أغرقت هذه الحركات نفسها في المحلي والراهن مثلما فعلت الحركات القومية العربية من قبل حين طرحت على الأمة برنامجاً قومياً يحصرها في إطارٍ جغرافي محدد ويُوقِفُ تطورها التاريخي.

إن المأزق الذي تواجهه الحركات الإسلامية يشبه مأزق الحركات القومية، ولذلك تتشابه التكتيكات والممارسات النضالية، ويتكرر خطف الرهائن، وخطف الطائرات، وقتل العزل، وزرع المتفجرات في أماكن مأهولة، وكلٌّ من الفريقين يعتبر نفسه طليعةً أكثر فهماً وتقدّماً من عامة الناس. وعلى هذا الأساس يبرّر الوسائل التي يستخدمها مهما كانت. فما داموا يرون أنهم يمتلكون الحقيقة؛ فإن الوسائل التي يستخدمونها لا توضع على محكّ العقل والأخلاق.

III

تمتلك أمتنا إمكانياتٍ إنسانية ومادية هائلة، لكنها لا تستطيع الاستمرار في تبديد هذه الإمكانيات على يد نُخَبٍ (قومية أو إسلامية) تكرِّر التجارب الخاسرة. ولا تستطيع الأمة تحقيق نهوضها وتحرّرها دون نخبة جديدة تبني نفسها على قاعدة من التجديد الفكري والأيديولوجي. والمقصود بالنخبة مفهوماً غير الطليعة التي تضع نفسها مكان عامة الناس لتقاتل بهم وتفكر عنهم وتلغي دورهم. بل النخبة هي ذلك القطاع من الأمة لأكثر قدرة على التجديد الفكري تجديداً يتواصل مع السيرورة التاريخية ويتجاوز الماضي في آنٍ معاً. لقد بدأت النخبة بدايات حسنة في القرن التاسع عشر في هذا الاتجاه، ثم تخلّت عن ذلك عندما اتجهت إلى النضال العملي معتبرة أنّ المسائل النظرية هي مجرد تفلسف لا طائل له. فكان النضال على روعته وعظمته وصلابة أصحابه في أحيان كثيرة يصل دائماً إلى طريق مسدود ويرتد على أصحابه وعلى الأمة، أو يؤدي إلى عكس المراد تحقيقه.

إنّ الأرجح أن التجديد الفكري لن يكون ممكناً عندما نعزل أنفسنا عن العالم ونشغل أنفسنا بمشاكلنا الداخلية (القومية) البحتة. علينا أن ننخرط في العالم، نتعرّف على المشاكل الإنسانية المطروحة ونتصدّى لحلّها. ولن يكون مجدياً نمط التفكير الذي يحتار بين الدجاجة والبيضة وأيّتهما كانت أولاً. فالعالم إشكاليتنا، ونحن في الوقت نفسه إشكالية عالمية، ولم يكن لنا في التاريخ العلمي دور إلا عندما كنا حَمَلَة رسالة للعالم، أي عندما كان العالم مجالاً لنا. ولا نعني بذلك إلغاء الآخرين بل التواصل معهم. في الزمن الراهن نبالغ إذا اعتبرنا أنّ عندنا الشيء الكثير لنعطيه للعالم؛ لذلك فإن الدعوة للانخراط في العالم هي دعوة لإنقاذ أنفسنا، لأن العزلة عن العالم هي استسلامٌ قبل كلّ شيء، وهي تقود إلى مزيدٍ من الكوارث والهزائم التي نَجُرُّها على أنفسنا.

لا نستطيع الانخراط في العالم دون استعادة الثقة بأنفسنا. الثقة بتاريخنا، وضخامة إمكانياتنا الراهنة، وقدرتنا على تجاوز الماضي والحاضر. والثقة بالذات تستدعي المزيد من العمل الذهني والمادي، كما تستدعي المزيد من الجهد على طريق التنمية والتقدّم. والتنمية بالاعتماد على الذات تختلف عن التنمية المستقلة بما تعنيه هذه الأخيرة من انعزال عن العالم وتجاهل لآلية عمل السوق الرأسمالية العالمية. وقد برهنت تجارب العديد من الدول في شرقي آسيا أنه يمكن التنمية في إطار تلك السوق العالمية، كما برهنت تجارب دول أخرى أنّ الانعزال عن العالم أدّى إلى مزيد من التأخُّر والتراجع على الصعيدين المادي والذهني. والطريق التي اختارتها الدولة في لبنان مثلاً، هي طريق التنمية بالاعتماد على الذات لا التنمية المستقلة عن العالم أو في مواجهته؛ لذلك استطاعت هذه الدولة البدء بعملية الإعمار والتنمية بخطىً واسعةٍ تتسارع وتيرتُها يوماً بعد يوم. وقد استطاعت هذه الدولة تحقيق استقطاب مستوى من المصداقية لم تتمتع به في أيّ مرحلة ماضية، واستطاعت استقطاب مبالغ لا بأس بها من التمويل الخارجي إضافة إلى ما هو متاح من التمويل الداخلي. ولو لم تفعل الدولة اللبنانية ما فعلته لكان الخراب يزداد والتراجع يتراكم.

ما عاد باستطاعتنا تكرار تجارب الماضي والادعاء بحمل الرسالة أو الدعوة،

فالتاريخ لا يكرر نفسه إلا كاريكاتورياً. علينا أن نتجاوز أنفسنا، وأن نبذل الجهد لإعطاء العالم تجربة جديدة. ونكرر إننا نستطيع التجديد وإعطاء العالم شيئاً دون الانخراط فيه، والتعاطي مع المشاكل الإنسانية بجديّة. حتى الآن كان التقليد للمفاهيم والأساليب الغربية كما التقليد لتجاربنا التاريخية مؤشراً على العجز عن ولوج باب تجارب جديدة وتجديدية، كما كان دليلاً على عدم الجدية. والجدية عمل مثابرة ودأب واتقان.

وليس النظام العالمي جديداً بمعنى أنه عالم تقلّص فيه التناقض وصار التعامل فيه بين مختلف الأمم والمجتمعات على قدم المساواة والحرية دون تبعية واستغلال، بل هو نظام قديم إذا أُخذ على أساس هذه المقاييس. لكنه جديد بما حدث فيه من تطورات على صعيد سرعة الاتصال والربط بين مختلف أطرافه، وعلى صعيد التطور التقني والمعرفي الذي خلّف إمكانياتٍ هائلةً لحلّ المشاكل التي يعاني منها البشر كما خلق في الوقت ذاته إمكانيات هائلة لتدمير البشر ونظام الكرة الأرضية.

ويتمحور النظام العالمي الراهن حول مراكز في أماكن معلومة، ونحن لا نشكّل سوى طرفٍ لها. ولن نصبح مركزاً من مراكز النظام العالمي إلا متى أصبحنا قادرين على استخدام الإمكانيات المتاحة لدينا، وهي كثيرة وعندنا كل القدرة على استخدام هذه الإمكانيات. الأمر يعتمد على القرار الذي نتخذه جماعياً بهذا الشأن ولن يؤخذ هذا القرار دون تعبئة روحية ومعرفية.

تشير الدراسات التاريخية الحديثة إلى النظام الموجود من قرون عديدة، وهو ليس اختراعاً لنظام رأسمالي أو غيرها. وعندما كانت أمتنا مركزاً أساسياً في النظام العالمي في بعض مراحل تطوره كان ذلك نتيجة انفتاح الأمة ومستوى المعرفة لديها ومبلغ الجهد والعمل في مجتمعها، ولم يكن الأمر مؤامرة حاكتها الأمة ضد أعدائها. وفي النظام العالمي الراهن ليس وضع الأمة نتيجة مؤامرة حيكت ضدها، بل هناك موازين قوى تتغير باستمرار. والسياسة الدولية، أي العلاقات الدولية، هي علم ومعرفة وتقدُّم أكثر مما هي مُناورات ومُؤامرات.

إنّ الانخراط في العالم يستدعي بلورة مفهوم الأمة غير القومية، الأمة التي تبقى منفتحةً على العالم وترفض أن يتحدّد تطورها في إطار جغرافي محدد، أو حتى في إطار ذهني وفكري مغلق. وما حققت هذه الأمة بقاءها خلال مختلف مراحل تاريخها إلا لأنها كانت مجتمعاً مفتوحاً قادراً على الدمج والاستيعاب والتجاوز.

إن مفهوم الأمة غير القومية لا يعني التخلّي عن مبدأ الوحدة. بل إن توحيد الأمة شرط ضروريٌّ كي نستطيع استخدام الإمكانيات المتاحة. وفي حين اعتبرت الايديولوجيا القومية أن التكامل الاقتصادي شرط لتحقيق الوحدة، نعتبر أنّ العكس هو الصحيح، وأنّ وحدة الأمة هي التي تقود إلى التكامل، بل التقدم، الاقتصادي وغير الاقتصادي.

ليست هذه الأمة عِرْقاً ولا إثْنيةً ولا قوماً ولا قبيلة (أو تجمع قبائل)، بل هي سيرورة تاريخية. وكانت على الدوام، في مختلف مراحل التاريخ مجتمعاً مفتوحاً يستوعب ويدمج في إطاره الشعوب والأقوام والقبائل الوافدة المنضوية تحت لوائه. وعندما كانت تواجه إشكالية المواجهة بين الانغلاق القومي والمشروع الكوني، كانت تختار هذا الأخير حتى ولو كان على حساب موقع العرب في السلطة. وهي أمة عربية لارتباطها باللغة لا بالعِرْق العربي أو القبائل العربية؛ واللغة العربية كمكون أساسي للأمة هي الدلالة على كون هذه الأمة تشكيلاً ثقافياً تاريخياً قبل كل شيء آخر.

بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية (وانسحاب الأتراك من إطار الجماعة) اعتنق العرب أيديولوجيا القومية العربية، وربما كانوا مضطرين لذلك إذ وجدوا أنفسهم لوحدهم. في نفس الوقت كانت فكرة الوحدة والجماعة هي الفكرة التي تلقى أوسع الولاء بين جماهير الأمة. لكن الأيديولوجيا القومية لم تؤدّ إلى قيام الدولة العربية الواحدة، بل ثبّتت الأقطار وجودها وتحوّلت إلى كيانات تؤبِّدُ نفسها. لم يكن ذلك نتيجة مؤامرة، وحسب، بل حدث ذلك لأنّ تلك الأيديولوجيا القومية كانت على تناقض مع تراث الأمة وتاريخها. وقد فهمت الجماهير العربية ذلك وكانت تتعاطف مع عبد الناصر صاحب فكرة الدوائر

الثلاث (العربية والإفريقية والإسلامية) أكثر بكثير مما كانت تتعاطف مع الحركات القومية.

هذه أمةٌ عظيمة تحقق نفسها عندما تتجاوز نفسها؛ لذلك فهي قادرة على أن تكون صاحبة مشروع كوني وعلى أن تنخرط في العالم بكل ثقة. إنّ منطق الحركات القومية الذي يقول للغرب نحن نسعى لأن نكون مثلكم لكنكم تتآمرون علينا هو منطق دفاعي. كذلك منطق الإسلاميين الذين يعادون العالم ويسعون لانغلاق الأمة على نفسها؛ إنه منطق يعلن سلفاً أن لا قدرة لنا على تجديد المشروع الكوني وعلى التعاطي بثقة مع العالم. آن لنا أن ننقذ أنفسنا بأن نجدد مشروع الأمة ونقتحم العالم لا أن ننعزل عنهما.